28/01/2020

القدّيس البار أفرام السوري (+373م):



القدّيس البار أفرام السوري (+373م):

حدا ثته:

المعلومات الموثوقة عن حياته محدودة. اسمه معناه "الخصب". ولد في نصيبين على ضفاف نهر دجلة، أو ربما في جوارها، لعائلة فقيرة حوالي السنة ٣٠٦م، زمن الإمبراطور ذيوكليسيانوس قيصر. أكثر من قال ورد في شأن والديه. قيل إنهما كانا تقيّين ومعترفين بالمسيح، وقيل كانا من نسل الشهداء، وقيل أيضاً بل كان أبوه كاهناً وثنياً. فلما مال الصبي إلى المسيحية طرده أبوه من المنزل العائلي فلجأ إلى يعقوب، أسقف نصيبين، الذي أنشأه على محبّة الفضيلة والتأمّل في الكتاب المقدّس.

شهدوا له:

كثيرون من القدامى تحدّثوا عن البار أفرام أو امتدحوه. أبرز هؤلاء القدّيس غريغوريوس النيصصي في مديحته الخاصة به. باسيليوس الكبير شهد له وكذلك الذهبي الفم. بلاديوس وثيودوريتوس وسوزومينوس امتدحوه. فوتيوس الكبير اعتبره معلّم المسكونة الإلهي و القدّيس سمعان المترجم كتب سيرة حياته. غريغوريوس النيصصي أسماه "القدّيس أفرام" ولقبه بـ "فرات الكنيسة" و"المعلم الروحي" ودعاه "أبانا العظيم" و"النبي الفائق" و"قدّيسنا المشهور" و"سيطع دعوس الناموس أفرام"، وتجرّأ فجعله بجانب "أعظم المولودين في النساء" و"وسيط عهد النعمة". معلومات نشأته نستقيها، بصورة أساسية، من مؤلّفاته ومن كل ما قيل عنه، السيما من مديحة النيصصي.

أوائله:

المعلومات الموثوقة عن حياته محدودة. اسمه معناه "الخصب". ولد في نصيبين، على ضفاف نهر دجلة، أو ربما في جواره، لعائلة فقيرة حوالي السنة ٣٠٣م، زمن الإمبراطور ذيوكليسيانوس قيصر. أكثر من قال ورد في شأن والديه. قيل إنهما كانا تقيّين ومعترفين بالمسيح، وقيل كانا من نسل الشهداء، وقيل أيضاً بل كان أبوه كاهناً وثنياً. فلما مال الصبي إلى المسيحية طرده أبوه من المنزل العائلي فلجأ إلى يعقوب، أسقف نصيبين، الذي أنشأه على محبّة الفضيلة والتأمّل في الكتاب المقدّس.

يُستدل من اعترافات القدّيس أنه سلك في شبابه نظير أقرانه. لم يكن يطمع في القداسة ولا كان له مثل يحتذي به. همّه كان أن يعمل ويأكل من عرق جبينه وأن يكون له صيت حسن بين الناس. كان يباهي بأنه من الشباب المفكّر ويجاهر برأيه في العناية الإلهية أن لا شأن لها في تدبير الكون، وكل ما يحدث إنما يتعدّى كونه وليد الاتفاق ونواتج الأقدار الطبيعية.

لكن، حدث له، بتدبير الله، ما سفّه رأيه وفتح عيني قلبه على St-Ephreim-576 طرق القداسة وخدمة القريب. فلقد طارد يوماً بقرة أحد المساكين لأنها دخلت حقله، ففرّت من أمامه فتبعها، فدخلت في الوعر، وقيل افترستها الوحوش. ونام أفرام عن البقرة ولم يعوّض على صاحبها، ولا اعتبر نفسه مذنباً بشأنها. ولمّا يمضِ شهر على ذلك حتى جرى القبض عليه متّهماً بسرقة قطيع أضاعه الأجير المكلّف به الذي اتفق مرور أفرام بموضعه ساعة وصول الشُرطة إليه.

فألقي في السجن ريثما تجري محاكمته. هناك التقى عدداً من المساجين كلّهم متّهم بما لم تقترفه يداه. وإذ شعر بضيق عظيم لأنه ألفى نفسه والمساجين الآخرين متّهمين ظلماً بما هم منه براء، بات على وشك إصدار حكم على الله أنه لا عدالة في الأرض تُرتجى والأمور تجري اتفاقاً ولا علاقة لله بها. وغفا متكدّراً.

فجاءه في الحلم صوت يقول له: إذا كنتَ بريئاً من هذا الجرم، أي أفرام، أفأنت بريء من غيره من الذنوب؟ فتذكّر أفرام العجلة وعرف ذنبه فاستغفر ربّه. فلما صحا، في اليوم التالي، أخذ يسأل المساجين واحداً واحداً عما سلف من سيرتهم فتبيّن

ه أن عل ى ك ل واح د منهم ذنابًا وذنوبًا لم يؤدِّ عنها الحساب، فتيقّن إذ ذاك أن ام ظنّه لم يصب الناس في حياتهم ظلمًا وه تأديب عن معاص سبق لهم أن ارتكبوها ولمّا يُجازوا عنها.

إذ ذاك أدرك أن ما يحدث للناس الي حدث لهم اتفاقًا ليس الكون من دون مدبّر يرعى شؤونه ويسهر على كل صغيرة وكبيرة فيه وإن كان لله في أحكامه شؤون غير ما يشؤون الناس وما هم عنه غافلون. فأخذ، وهو بعد في السجن، يرجو الله بدموع أن يعفو عنه واعدًا إيّاه بإصلاح سيرته ولو نجّاه من هذا البلاء المبين. وكان أن أُطلق سراحه فخرج واعتمد أنه لم يكن قد صار مسيحيًا إلى ذلك الحين.

وإذ انطبع الخوف من السجن والقضاة في نفسه كما بنار وباتا وثاقًا من عدالة ربّه وضعفه وهو وفادحة خسارته إن لم يلحظ نفسه ويحرص على نقاوة سيرته، زهد وخرج فنسك في القفار وأضحى للتائبين معلّمًا وللمتهاونين منخسًا. وله تُنسب صلاة التوبة التي طالما ردّدها المؤمنون في الكنيسة على مدى الأيام:

"أيها الرب وسيّد حياتي أعتقني من روح البطالة والفضول وحبّ الرئاسة والكلام البطّال. وأنعم عليّ أنا عبدك الخاطئ بروح العفّة والتضاع والصبر والمحبّة. نعم اي ملكي وإلهي، هب لي أن أعرف ذنوبي وأن ال أدين إخوتي فإنك مبارك إلى الأبد آمين". كان قد بلغ من العمر، آنذاك، حدود الثامنة عشرة.

رهبنته:

هزّت رؤى الدينونة العتيدة أعماق أفرام فهرب من العالم وهموم العالم سالكًا في مسالك التوبة مرتّلًا للمزمور (المزمور 54): "ها أنذا ابتعد هاربًا وآوي إلى القفار".

همّه، على حدّ تعبير النيصيصي، بات موجّهًا نفسه والله. هكذا تقدّم في اكتساب الفضيلة.

إنضمّ أفرام إلى شيخ مبارك اسمه يوليانوس وتتلمذ عليه "كان يعلّم أن حياة البرّية تحرّر الراغب فيها من صخب العالم الباطل، وتجعله كليم الملائكة عن طريق السكينة وترفع ذهنه باستمرار إلى الرؤى الإلهيّة".

لم تكن لحميّته في النسك حدود: نوم على الأرض وصوم لأيّام بكاملها وسهر في الصلاة أكثر الليل وعمل وتعب في النهار. كان قانونًا في كل أديرة مصر وبلاد ما بين النهرين أن يبذل النسّاك أتعابًا جزيلة جزاء توبتهم وتكفيرًا عن معاصيهم السالفة.

وكان عليهم أن يقدّموا عن ذلك حسابًا في نهاية كلّ أسبوع. ولكن كان العمل اليومي كان مقرونًا بالصلاة. فكان على كل راهب أن يحفظ كتاب المزامير عن ظهر قلب. أما ما يحصّلونه فوق ما يحتاجون إليه فكانوا يوزّعونه على الفقراء. الفقر عندهم كان التزامًا. لما قربت ساعة رحيله إلى السماء قال:

"لم تكن لأفرام محفظة ولا عصا ولا كيس مطلقًا ولا امتلكت في حياتي شيئًا

من الذهب أو الفضّة لأني سمعت الملك السماوي يقول لتلاميذه أن لا يقتنوا شيئاً على الأرض. لذا لم أرغب بشيء بل ازدريت المجد والمال ومِلت إلى العلويات...".

وكان أفرام بطبعه غضوباً، لكنه عرف، بنعمة الله والانتباه والجهد المتواصل، أن يحصّل الوداعة حتى سرى عليه قول "رجل الله الوديع المسالم".

نقل عنه النيصيصي قوله قبل موته بقليل: "لم أُهن الله في حياتي كلّها ولم أشتجر مطلقاً لأي من المؤمنين ولا تأسّيت بكلام طائش يصدر عن شفتيّ مع أيّ منهم".

في تعاطيه مع الخطاة المعاندين كان لا يلجأ سوى للبكاء والاستعطاف. مرة أمضى في الصوم أيّاماً، فجاءه أحد الإخوة بقدر فيه خضار مطبوخة ليتشدّد. ولكن قبل أن يصل الأخ إليه بقليل تعثّر في مشيته ووقع القدر من يديه وانكسر فاضطرب ولم يدر ماذا يعمل. فبادره أفرام بمحبة ووداعة: "ما دام طعامنا لم يأتِ إلينا فلا بأس أن نذهب نحن إليه!" ولما قال هذا قام وانطرح على الأرض بجانب القدر المكسور والطعام المهدور وأخذ يلتقط منه ما تيسّر ويأكل.

طروباريته

لِلبَرِيَّةِ غَيْرَ المُثْمِرَةِ بِمَجارِي دُمُوعِكَ أَمْرَعْتَ وَبِالتَّنَهُّداتِ الَّتي مِنَ الأَعْماقِ أَثْمَرْتَ فَصِرْتَ كَوكَباً لِلمَسْكُونَةِ بِفَيْضِ مَئَةٍ إِلى أَلْفٍ مِنَ الخِرافِ بِالعَجائِبِ. أَيا أَبانا الباراّ أفرام فَتَشَفَّعْ إِلى المَسيحِ الإِلهِ أَنْ يُخَلِّصَ نُفُوسَنا.

قنداق باللحن الثاني

لما كنتَ قد سبقتَ فنظرتَ على الدوام ساعة الدينونة، فكنتَ توبخ بدموع التخشع، أيها البار أفرام، فأصبحتَ أباً عاماً لكَ معلماً، فلذلك أيها الأب الفائق العالم، أنت تُنهض المتوانين إلى التوبة.

قال عنه النيصيصي:

إنه توصّل إلى اكتساب طهارة نفسية وجسدية إلى حدّ فائق الـSt-Ephreim-g1 يمكن للطبيعة البشريّة أن تصل إليه، ولم يسمح لنفسه أن تميل عن سيادة الأفكار القويمة الصافية. "كان كملكٍ روحي يتحكّم بقواه النفسية ويشعّ ببهاء كليّ بحضوره الجسدي".

ومن أبرز ما اختصّه به ربّه لنقاوة طويّته وعمق توبته وحفظ نفسه بريئاً من الدنس موهبة الدموع. كان يبكي لخطاياه وخطايا العالمين باستمرار. لا تجفّ دموعه في ليل ولا في نهار. وكما يبدو طبيعياً للناس أن يتنفّسوا، على حدّ تعبير النيصيصي، كانت دموع أفرام لا تنقطع. وكان أفرام يحسب نفسه أشقى الناس ويودّ لو يعامله الجميع بازدراء.

لذا كان لكلمات المديح في أذنيه وقع موجع. وكلّما طرقت أذنيه كلمة مديح تألّم

وتغيّرت سحنته وانحنى إلى الأرض وتصبّب عرقاً وصمت صمتاً رهيباً وقطع لساني الحياء. ولما حانت ساعة رحيله قال موصياً: “لا ترنّموا لأفرام تارنيم الجنّاز ولا تمدحوه ولا تدفنوه بسبان فاخرة ولا تحفروا لجسده قبراً خاصاً لأني اتفقت مع الله أن أستريح في مقبرة الغرباء”.

عاش أفرام في برّية نصيبين سنين عديدة كان خلالها كأنه خارج الجسد وخارج العالم، على حدّ تعبير القدّيس غريغوريوس اللاهوتي. وقد تعرّض لاضطهاد عدد من الرهابين الفاترين. لكنه استعان بمثال يوليانوس معلّمه وبنصائحه. كان معلّمه إليه عزاء وكذلك يعقوب أسقف نصيبين الذي احتضنه ورعاه وقدّمه وجعله رأساً للمدرسة اللاهوتية التي أسسها هناك.

من نصيبين إلى الرها:

وتعرّضت نصيبين لهجوم الفرس ومحاصرتهم لها فحافظ أفرام ويعقوب الأسقف، بصلاتهما، على المدينة. وقد ورد في سيرة القدّيس يعقوب (13كانون الثاني) إنه أصلح بصلاته سور المدينة بعدما انعطب وإن الله أرسل غيمة هائلة من البعوض أزعجت المهاجمين واضطرتهم إلى الانكفاء. لكن المدينة انتقلت إلى الفرس، فيما بعد، إثر معاهدة سلام أُبرمت بين الفرس والبيزنطيين سنة 363م وقضت بتسليم المدينة بعدما فشل يوليانوس الجاحد في حملاته ضد الفرس في عمق بلادهم. على الأثر انتقل أفرام إلى الرها، على طريق أنطاكية الهند، وأقام فيها، إلى آخر حياته، أي بين العامين 363 و373م، وفي 378م كما ورد في غير مكان.

جعل أفرام في نفسه، في انتقاله إلى الرها، أمرين، أن يسجد لرفات القدّيسين فيها وأن يلتقي إنساناً ينتفع من كلامه وإرشاده. لذا صلّى قائلاً: “أيها الرب يسوع المسيح، سيّدي، أعطني أن أصادف في الرها من يحدّثني بما فيه منفعتي”. فلما دخل المدينة طالعته امرأة هوى وقفت أمامه وحدّقت فيه.

فقال لها أفرام ليصرفها عنه:

“كيف تجرئين أيّ امرأة أن تنظري إليّ بمثل هذا الإصرار والوقاحة؟ ألا تخجلين من نفسك؟!” فأجابته: لست بمذنبة إذا نظرت إليك لأني خرجت من جنبك. أما أنت فخليق بك أن تحدّق في الأرض التي منها خرجت، لأنك رهبت تعتبر نفسك ميتاً في الجسد.

فلما سمع الراهب كلامها فطن إلى حكمة الله عليك ألا تحدّق طمعاً في الوجوه!” فلما دخل أفرام المدينة حلّ بصورة مؤقتة، وشكر المرأة ومجّد الله وانصرف. وقيل، لما دخل أفرام المدينة حلّ بصورة مؤقتة، وشكر المرأة ومجّد الله وانصرف. في أحد البيوت حيث أقامت بجوارها امرأة زانية عزمت، بإيعاز من الشيطان، على الإيقاع به. فعرضت نفسها عليه واوقفها شرط أن يكمل فعلها النجاسة وسط المدينة، أمام الجميع. فقالت له: أما تخجل، أيها، من الناس الذين سيهزأون بنا؟!

فأجابها: تخجلين من الناس، أيتها الشقية، ولا تخافين الله الذي يرى ما نعمل، في

الخفية والعلن، ويعاقبان عقاباً أبدياً شديداً فيما نستسلم نحن لمتع الخطيئة؟! فنفذ خوف الله إلى قلبها وتاب، وقيل ترهّبت وأرضت الله بسيرة حميدة. هذا وذُكر أن أفرام تردّد، في الرها، على النسّاك المنتشرين في قفارها وتعلّم منهم وأن صيتها انتشر فجاءها الكثيرون يطلبون الانضمام إليها، وإنها أسّست ديراً بجوار الرها وجعل فيه مدرسة لاهوتية اشتهرت، وصار أباً لمئات من النسّاك والرهبان.

معلّم وشاعر:

تمتّع أفرام بموهب طبيعية فذّة أنماها وصقلها بالدرس والتأمل في الكتاب المقدّس وكتابات الآباء. وقد حباه ربّه بموهبة التعليم فأضحى واعظاً ومعلّماً مميزاً. أتقن الكتاب المقدّس إتقاناً عظيماً. النيصيص تحدّث عن اشتعال لهيب الكتاب المقدّس فيه وإنه بشوقه للدراسة والتأمل ارتفع كلهيب سماوي وطالع العهدين القديم والجديد فنفذ إلى المعاني الإلهية أكثر من أي شخص آخر. شرح أفرام، بدقّة، الكتاب كلّه من سفر التكوين إلى آخر سفر من عهد النعمة، كما نقل إلى النور أعماق الحقائق الإلهية غير المدركة.
st-efram-soriany

لم يرتشف من الكأس الروحية وحسب بل استفاد أيضاً مما كان مفيداً من كتابات الحكمة العالمية. طالع، بشهادة النيصيص، التراث الأدبي واطلع على أبعاد معانيه، إلاّ أنّه طرح جانباً ما كان غير نافع منه. عرف أفرام السريانية بامتياز. كان سيّد الكلمة بكل معنى الكلمة. كتب في السريانية برشاقة نادّة ولياقة أخّاذة. طواعية الكلمة لديه كانت خارقة. انسابت الكلمات منه كالجدول الرقراق.

وكان، كذلك، كنبع دفّاق. لم تكن له صعوبة في اللغة بل في كثافة الأفكار والصور التي أغدق بها عليه ربّه. لذا توسّل أن يمسك عنه ربّه عطية الأفكار الغزيرة المختارة:

“هدِّئ عني اي رب أمواج نعمتك!” قال هذا، بكلام النيصيص: “لأن لساني كان يحوي بحراً شاسعاً من التعليم لا يمكنني التعبير عن أمواجه المتراكمة”. مفاهيمه كانت واضحة شفّافة. وأسلوبه صاف ممتع. تكلّم بيسر وغزارة عجيبين وبأسلوب رشيق جامع لا تكلّف فيه، مطعّم بحلاوة جزيلة وقوّة مؤثّرة ونبرة طبيعية وإحساس مرهف وعاطفة جيّاشة حتى كانت الكلمات تخرج من فمه مشحونة بقوة تُقاوم.

كل هذا حمل القدّيس إلى أقوال القدّيس غريغوريوس النيصصي على تأكيد نفاذ
كل قلب بالتساؤل: “من هو ذاك الإنسان المتصلّب والقاسي القلب الذي سمع
أي أو أي نبرية وأم ؟ طبعه تواة سكارات خطاياه حزن ولا يلين ولم همه
من ؟ فاضلاً عاد ،وحاً صار للتوت عمس عليه ولم يصرّف التحشّ وخص
الذين ينشدون فرح المذلّات المادية تاركين الدموع جانباً إذ أنصت لكلامه
يحزن ويبكي متذكّراً الجازء الآتي؟...

أفرام واللهرطقات:

كف القدّيس أفرام على دراسة عقائد الكنيسة بدقّة. بتعبير النيصصي ”كان
الباب أفرام قويم الإيمان، لا يخطئ أبداً في أمور العقيدة، كما نستنتج من
كتاباته ومن رأي الكنيسة فيه”. وقد هدى عدداً كبيراً من الوثنيّين إلى الإيمان
وأصلح جمّاً من الهرطقة. دحض بدعة آريوس بشأن الألوهة وبدعة صابليوس القائلة
بالآب والابن والروح القدس مجرّد ظواهر لإله واحد.

كما طعن، بقوة، بمعتقد أبوليناريوس الذي طعن بإنسانية الرب يسوع الكاملة،
وتصدّى لأتباع أفنوميوس الآريوسي الذي أكدّ المساواة الآب والابن في الجوهر.

القدّيس إيرونيموس يوصي بكتاب أفرام ضد بدعة مقدونيوس الذي طعن بألوهية
الروح القدس. ولم يقف أفرام عند هذا الحد بل تصدّى، بقوّة، للمرقيونية
والمانوية والبردسانية التي تنكّرت لقيامة الجسد. يذكر أن بردسان وضع
أناشيد ضمّنها قوله ونشرها بين الناس في الرها. وقد واجه أفرام هذا الأسلوب
بأسلوب مثله فجعل التعليم القويم في أناشيد بديعة جرت على ألسنة الناس
بيسر. ويصفه النيصصي في حماسه بأنّه “ابن الحقيقة قائلاً إنه “تصدى لما
يمكن أن يبذره الشيطان الشرّير من هرطقات لاحقة بفضل رؤياه النبويّة. كل
ذلك يظهر في كتاباته النثرية والشعرية”.

سيامته:

سيم أفرام شمّاساً وعُرف بشمّاس كنيسة الرها. من سامه؟ قيل القدّيس يعقوب،
أسقف نصيبين، وقيل القدّيس باسيليوس الكبير. أمّا كهونته فغير مؤكّد. ورد
أنه سيم كاهناً في أواخر حياته. أما فيلوخيوس القدّيس، أسقف إيقونية،
وكبريانوس الراهب المرنّم يشهدان لذلك، ربما النيصصي نفسه الذي قال عنه
إنه: “كاهن اقتدى بذبيحة هابيل البار الأوّل”. كما ورد أنه اختير للأسقفية
عارات، ولفرط تواضعه تظاهر بالجنون أو خذ يركض ويصيح ويأكل في الشارع
وتركوه واختاروا سواه.

أفرام وباسيليوس وبيوس:

يرد في بعض النصوص وصف للقاء القدّيسين إفرام و باسيليوس.

ونجد صدى لهذا الحدث في كتابات المؤرّخ سوزومينوس.

ذهب أفرام إلى باسيليوس، إثر رؤيا، برفقة مترجم من اليونانية وإليها، وسمعه وانتفع منه، وقيل أعطاه باسيليوس، بنعمة الله، أن يتكلّم اليونانية بطلاقة وسامه كاهنًا.

النيصصي قال إن أفرام جاء إلى قيصرية الكبّادوك بإرشاد الروح القدس فالتقى باسيليوس الكبير، فم الكنيسة وعندليب العقائد الإلهية الذهبي، وشاهد، بعين نفسه الثاقبة، حمامة قائمة على كتف القدّيس باسيليوس الأيمن تملي عليه الأقوال التعليمية وهو بدوره ينقلها إلى الشعب". من جهة أخرى ورد أن القدّيس أفرام ذهب إلى القدّيس الأنبا بيوس (بيشوي)، المعيّد له عندنا في ٢ تموز، وتبادل وإيّاه كلامًا روحيًا جميلًا، ثم عاد إلى ديارهِ على سحاب الهواء.

محبّته وخدمته saint-ephrem:

اتصف القدّيس أفرام بفضيلة محبّة القريب فأخذ على عاتقه مهمّة توزيع القمح على الفقراء في الرها لما حلّت بها المجاعة، و قيل رتّب مستشفى بثلاثمائة سرير لمعاينة المصابين. كما عزّى الغرباء والمساكين بأقواله الخلاصية وحثّ الأغنياء على فتح خزائنهم لإعانة المعوزين. وفي رأي النيصصي إن المحبة، التي هي أعظم الفضائل، قد اكتسبها المغبوط أكثر من أي شخص آخر.

كتاباته:

إنتاج القدّيس أفرام كان ضخمًا. كتب بلغة شاعرية لا مثيل لها. شملت تفاسيره الكتابية أكثر أسفار العهدي القديم والجديد. كما وضع مقالات ضدّ الهرطقات وترك أناشيد عن الفردوس و البتولية والإيمان والأسرار الكبرى للمخلّص وأعياد السنة. قسم كبير من أناشيده دخل في الكتب الليتورجية السريانية.

وقد شهد آباء كثيرون لأهمية مؤلفاته حتى إن شروحه كانت تُقرأ في الكنيسة و بعد تلاوة الكتاب المقدّس. كل هذا جعل الكنيسة تدعوه "قيثارة الروح القدس" و "معلم المسكونة". لم يصلنا من مؤلفاته إلا جزء ضئيل، و هو عبارة عن ستة أجزاء، ثلاثة منها باليونانية واللاتينية وثلاثة بالسريانية واللاتينية. قيل إنه وضع بالسريانية ثلاثة ملايين بيت من الشعر.

وقد عُرفت باكرًا في اليونانية مؤلفاته النسكية التي هي بمثابة تعاليم روحية للرهبان الذين عرفهم و عاش بينهم. ويلاحظ ارتباط تعاليمه الروحية الوثيق بالكتاب المقدّس الذي كان يورد آياته بتصرّف و غزارة ويسر في سياق كلامه.

رقاده:

كثيراً ما كان القدّيس أفرام يشعر بالأسى و السخط والاضطراب متى أدرك أن الآخرين يعاملونه كقدّيس وأ متى عبّروا عن إكرامهم وتقديرهم له. فلما دنت ساعته وأصى تلاميذه وأصدقاءه قائلاً: “ال ترتّلوا الأناشيد الجنائزية في دفن أفرام و ال تؤبّنوه. ال تلفّوا جثتي في كفن غالي الثمن. ال تقيموا النصب لتذكاري. فقط خصّصوا لي مكاناً كما لسائح أنيس سائر وغريب كما كان آبائي على الأرض”.

وإذ الحظ إن البعض كانوا قد هيأّوا أغطية ثمينة لدفنه حذّرهم من أن يفعلوا وأشار عليهم بضرورة صرف الأموال ال على الأكفان بل على الفقراء.

أحد الأغنياء أبى أن يسمع و عزم، في قلبه، على تنفيذ مأربه فاستبدّ به الشيطان ولم يتركه إلاّ بعد ما صلّى عليه القدّيس وكشف له فكر قلبه وصرفه عما كان مزمعاً أن يقوم به.

كذلك اعترف القدّيس بكونه رجلاً خاطئاً وطلب من الحاضرين أال يجعلوا أحد رماده الآثم تحت المذبح وال يأخذ أحد شيئاً من أسماله للبركة وال يعاملوه بكرامة لأنه كان خاطئاً وآخر الجميع. “بل أقوا جسدي بسرعة على أكتافكم و ارموني في المقبرة كأني السقط. ال يمدحنّني أحد لأني أخسّ الناس. و كي تعاملوني كما استأهل ابصقوا عليّ. ولو قُيِّد لكم أن تشتموا نتانة أعمالي لفررتم مني وتركتموني بال دفن”.

كل المدينة اجتمعت عند بابه. الكل بكى وسعى للدنو منه ليسمع ولو نصيحة أخيرة من فمه. ثم توقّف أفرام عن الكالم واستمر في صالته بصمت إلى أن أسلم الروح. وقد حفظت مدينة الرها ذكره وأخذت تعيّد له بعد موته مباشرة. هناك، في عيده، يبدو أن القدّيس غريغوريوس النيصصي ألقى مديحته بناء لطلب شخص يدعى أفرام أسره الإسماعيليون وقيّدوه فاستجار بالقدّيس أفرام فأجاره.

يصور طويل القامة، محدوداً من ثقل الأيام، عذاباً جميل المحيّا، ذا عينين سابحتين بالدمع وفي نظرته وهيئته سمات القداسة.

antiochpatriarchate.org